انظر ص ٢١٥ وما بعدها
انظر ص ٢٨١ حكاية جواب أبو علي الرذباري

مكتبة ابن تيمية
القسم الأول - المؤلفات

الاستقامة

لابن تيمية

أبي العباس تقي الدين أحمد عبد الحليم

المتوفى سنة ٧٢٨هـ

تحقيق

الدكتور محمد رشاد سالم

المجلد الأول

وقال : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [سورة التوبة : ٦] .

وقال تعالى : ﴿ اُتْلُ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ ﴾ [سورة العنكبوت : ٤٥] .

وقال : ﴿ فَاقْرَأُوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ﴾ [سورة المزمل : ٢٠] .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « لَيْسَ منا من لم يتغنَّ بالقرآن »(١) .

وقال : «من قرأ القرآن فله بكل حرفٍ عَشْر حسنات . أما إنِّى لا أقول : ألم حرف ، ولكن أقول : ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف »(٢) .

وهذا باب واسع يضيق هذا الموضع عن ذكر جزء منه .

فلما انقرضت القرون الفاضلة حصل فترة فى هذا السماع المشروع الذى به صلاح القلوب وكمال الدين ، وصار أهل التغيير فيه(٣) أحد رجلين : رجل مُعْرِض عن السماع المشروع وغير المشروع . ورجل احتاج(٤) إلى سماع القصائد والأبيات ، فأحدث سماع القصائد والأبيات كالتغبير . وكان الأكابر الذين حضروه لهم من التأويل ما لهم ، فأقام الله فى الأمة من أنكر ذلك ، كما هو سنة الله فى هذه الأمة الآمرة بالمعروف الناهية عن المنكر .

---

(١) مضى الحديث من قبل .

(٢) الحديث – مع اختلاف فى بعض الألفاظ – عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه فى : سنن الترمذى ٢٤٨/٤ (كتاب فضائل القرآن ، باب ما جاء فى من قرأ حرفاً من القرآن ما له من الأجر) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه . والحديث فى : سنن الدارمى ٤٢٩/٢ (كتاب فضائل القرآن ، باب فضل من قرأ القرآن) .

(٣) فى الأصل : أهل الصور (بدون نقط) فيه . ولعل الصواب ما أثبته . والمعنى : وصار أهل التغيير فيه الذى انحرفوا عن السماع المشروع ...

(٤) فى الأصل : احتجاج ، وهو تحريف .

وهؤلاء المنكرون فيهم المقتصد فى إنكاره ، ومنهم المتأوّل بزيادة فى الإنكار غير مشروعة .

كما أحدث أولئك ما ليس مشروعا ، وصار على تمادى الأيام يزداد المحدَث من السماع ، ويزداد التغليظ فى أهل الإنكار ، حتى آل[1] الأمر من أنواع البدع والضلالات والتفرق والاختلافات إلى ما هو من أعظم القبائح المنكرات ، التى[2] لا يشك فى عظم إثمها وتحريمها من له أدنى علم وإيمان .

وأصل هذا الفساد من ذلك التأويل فى مسائل الاجتهاد ، فمن ثبّته الله بالقول الثابت أعطى كل ذى /حق حقه ، وحفظ حدود الله فلم ظ ٧٥
يتعدها[3] : ﴿ وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللَّهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ ﴾ [سورة الطلاق : ١] ، فالشر فى التفريط بترك المأمور ، أو العدوان بتعدّى الحدود ، وحصلت الزيادات فى جميع الأنواع المبتدعة .

فإن أصل سماع القصائد كان تلحيناً بإنشاد قصائد مرقِّقَة للقلوب تحرِّك[4] تحريك المحبة والشوق ، أو الخوف والخشية ، أو الحزن والأسف ، وغير ذلك . وكانوا يشترطون له المكان والإمكان والخلان ، فيشترطون أن يكون المجتمعون لسماعها من أهل الطريق المريدين لوجه الله والدار الآخرة ، وأن يكون الشعر المنشَد غير متضمن لما يُكره سماعه فى الشريعة . وقد يشترط بعضهم أن يكون القوّال منهم ، وربما اشترط بعضهم ذلك فى

(١) فى الأصل : فى آل ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : الذى ، وهو تحريف .
(٣) فى الأصل : فلم يعتدها ، وهو تحريف .
(٤) فى الأصل : تتحرك .

الشاعر الذى أنشأ تلك القصائد ، وربما ضموا إليه آلةً تقوِّى الصوت ، وهو الضرب بالقضيب[١] على جلد مخدة أو غيرها ، وهو التغبير .

ومن المعلوم أن استماع الأصوات يوجب حركة النفس بحسب ذلك الصوت [الذى] يوجب الحركة[٢] ، وهو يوجب الحركة[٣] .

وللأصوات طبائع متنوعة ، تتنوع آثارها فى النفس . وكذلك للكلام المسموع : نظمه ونثره ، فيجمعون بين الصوت المناسب والحروف المناسبة لهم .

وهذا الأمر يفعله بنو آدم من أهل الديانات البدعِية كالنصارى والصابئة ، وغير أهل الديانات ممن يحرِّك بذلك حبه وشوقه ووجده ، أو حزنه وأسفه ، أو حميته وغضبه ، أو غير ذلك . فخَلَفَ بعد أولئك من صار يجمع عليه أخلاطاً من الناس ، ويرون اجتماعهم لذلك شبكة تصطاد النفوس — بزعمهم — إلى التوبة والوصول فى طريق أهل الإرادة .

وأُحدث بعد أولئك أيضا الاستماع من المخانيث المعروفين بالغناء لأهل الفسوق والزنا ، وربما استمعوه من الصبيان المردَان ، أو من /النسوان ص ٧٦ الملاح ، كما يفعل أهل الدساكر والمواخير .

وقد يجمعون فى السَّماع أنواع الفسَّاق والفجَّار ، وربما قصدوا التكاثر بهم والافتخار ، لاسيما إن كانوا من أهل الرياسة واليسار ، وكثيراً[٤]

(١) فى الأصل : بالقصيد ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٢) فى الأصل : ذلك الصوب بوجبه الحركة ، ولعل الصواب ما أثبته .

(٣) وهو يوجب الحركة : كذا فى الأصل ، ويبدو أن العبارة ناقصة .

(٤) فى الأصل : وكثير ، وهو خطأ .

ما يحضر فيه أنواع المردان ، وقد يكون ذلك من أكبر مقاصد أهل السماع ، وربما ألبسوهم الثياب [١] المصبَّغة الحسنة ، وأرقصوهم فى طابق الرقص والدوران ، وجعلوا مشاهدتهم ، بل معانقتهم ، مطلوباً لمن يحضر من الأعيان ، وإذا غلبهم وجد الشيطان رفعوا الأصوات التى [٢] يبغضها الرحمن .

وكذلك زادوا فى الابتداع فى إنشاد القصائد ، فكثيراً ما ينشدون أشعار الفسَّاق والفجَّار ، وفيهم كثير ينشدون أشعار الكفَّار ، بل ينشدون ما لا يستجيزه أكثر أهل التكذيب ، وإنما يقوله أعظم الناس كفراً برب العالمين ، وأشدهم بعداً عن الله ورسوله والمؤمنين .

وزادوا أيضا فى الآلات التى تُستثار بها الأصوات — مما يصنع بالأفراه [٣] والأيدى ، كأبواق اليهود ونواقيس [٤] النصارى — من [٥] بليغ المنكرات ، كأنواع الشبَّابات والصفارات ، وأنواع الصلاصل والأوتار المصوتات — ما عظمت به الفتنة ، حتى ربا فيها الصغير ، وهرم فيها الكبير . وحتى اتخذوا ذلك دينا وديدنا ، وجعلوه من الوظائف الراتبة بالغداة والعشى ، كصلاة الفجر والعصر ، وفى الأوقات والأماكن [٦] الفاضلات ، واعتاضوا به عن القرآن والصلوات .

وصدق فيهم قوله : ﴿ فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ

---

(١) فى الأصل : لبسوهم ثياب ، وهو تحريف .
(٢) فى الأصل : الذى
(٣) فى الأصل : بأفواه
(٤) فى الأصل : ونواقيص .
(٥) فى الأصل : ما من ، وهو تحريف .
(٦) فى الأصل : والماكن ، وهو تحريف .

وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ ﴾ [سورة مريم : ٥٩][1] ، وصار لهم نصيب من قوله تعالى : ﴿ وَمَا كَانَ صَلَاتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً ﴾ [سورة الأنفال : ٣٥] ، إذ المكاء هو الصفير ونحوه من الغناء ، والتصدية هى التصفيق بالأيدى ، فإذا كان هذا سماع المشركين ، الذى ذمَّه الله فى كتابه ، فكيف إذا اقترن بالمكاء الصفّارات /المواصيل ، وبالتصدية مصلصلات الغرابيل ، وجعل ذلك طريقا ودينا يتقرب به إلى المولى الجليل . ظ ٧٦

وظهر تحقيق قول عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : الغناء ينبت النفاق فى القلب كما ينبت الماء البقل .

بل أفضى الأمر إلى أن يُجتمع فى هذا السماع على الكفر بالرحمٰن ، والاستهزاء بالقرآن ، والذم للمساجد والصلوات ، والطعن فى أهل الإيمان والقربات ، والاستخفاف بالأنبياء والمرسلين ، والتحضيض على جهاد المؤمنين ، ومعاونة الكفّار والمنافقين ، واتخاذ المخلوق إلٰها من دون رب العالمين ، وشرب أبوال المستمعين ، وجعل ذلك من أفضل أحوال العارفين ، ورفع الأصوات المنكرات ، التى أصحابها شر من البهائم السائمات ، الذين قال الله فى مثلهم : ﴿ أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً ﴾ [سورة الفرقان : ٤٤] .

وقال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ١٧٩] ، الذين

(١) عبارة «من بعدهم» ساقطة من الأصل .

يفعلون فى سماعاتهم مالايفعله اليهود والنصارى ، ولهذا يتولّون من يتولاهم من اليهود والنصارى والصابئة ، والمشركين والمجوس[١] ، ويجعلونهم من إخوانهم وأصحابهم وأهل خرقتهم ، مع معاداتهم للأنبياء والمؤمنين .

فصار السماع المحدَث دائراً بين الكفر والفسوق والعصيان ، ولاحول ولاقوة إلا بالله ، وكفره من أغلظ الكفر وأشده ، وفسوقه من أعظم [الفسوق][٢] .

وذلك أن تأثير الأصوات فى النفوس من أعظم التأثير : يغنيها ويغذّيها ، حتى قيل : إنه لذلك سمى غِناء ، لأنه يغنى النفس .

وهو يفعل فى النفوس أعظم من حُمَيَّا[٣] الكؤوس ، حتى يوجب للنفوس /أحوالا عجيبة ، يظن أصحابها أن ذلك من جنس كرامات الأولياء ، ص ٧٧
وإنما هو من الأمور الطبيعية الباطلة المبعِدة عن الله ، إذ الشياطين تمدُّهم فى هذا السماع بأنواع الإمداد .

كما قال تعالى : ﴿ وَإِخْوَانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى الْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ ﴾ [سورة الأعراف : ٢٠٢] . وقال للشيطان[٤] : (واسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ [سورة الإسراء : ٦٤] ، فربما يخف أحدهم حتى يرقص فوق رؤوسهم ، ويكون شيطانه هو المغوى لنفوسهم .

---

(١) فى الأصل بعد كلمة المشركين : الصابئة والمجوس والمشركين ، ولعل الصواب ما أثبته .
(٢) كلمة «الفسوق» : ساقطة من الأصل .
(٣) فى الأصل : حمنا
(٤) فى الأصل : الشيطان ، وهو خطأ .

فأخبر أنه فتنة لمن قصده ، ولم يجعله لمن صادفه مستحبا ولا طاعة ، بل جعله راحة . فكيف يقول : إنه أظهر خطاب الحق المتقدم ؟

وقال أبو القاسم[١] : «سمعت الأستاذ أبا على الدقاق يقول : السماع حرام على العوام لبقاء[٢] نفوسهم ، مباح للزهاد ، لحصول مجاهداتهم ، مستحبٌ[٣] لأصحابنا ، لحياة قلوبهم» .

قلت : قد قدَّم أبو القاسم فى ترجمة الشيخ أبى على[٤] الروذبارى ، وهو قديم توفى بعد العشرين وثلاثمائة ، صحب الجنيد والطبقة الثانية[٥] ، وكان يقول : أستاذى فى التصوف الجنيد ، وفى الفقه أبو العباس بن سُريج ، وفى الأدب ثعلب ، وفى الحديث إبراهيم الحربى . **وقال فيه أبو القاسم**[٦] : «هو[٧] أظرف المشايخ وأعلمهم بالطريقة» .

قال[٨] : «سمعت الشيخ أبا عبد الرحمن السلمى [رحمه الله يقول][٩] سمعت أبا القاسم الدمشقى يقول : سئل أبو على الروذبارى عمَّن يسمع[١٠] الملاهى ويقول : هى لى حلال ، لأنى وصلت إلى درجة لايؤثر

---

(١) فى «القشيرية» ٦٤٤/٢ قبل الكلام السابق وبعد كلامه الوارد فى ص ٣٧٩ مباشرة .

(٢) فى الأصل : لبا ، وهو تحريف . والمثبت من «القشيرية» .

(٣) فى الأصل : مستحبا ، وهو خطأ .

(٤) فى الأصل : أبو على ، وهو خطأ .

(٥) سبقت ترجمة أبى على الروذبارى ، ص ١٨٠ .

(٦) فى «القشيرية» ١٥١/١ .

(٧) هو : ليست فى «القشيرية»

(٨) بعد الكلام السابق مباشرة ٦٤٤/٢ .

(٩) ما بين المعقوفتين زيادة فى «القشيرية» .

(١٠) فى الأصل : يستمع . والمثبت من «القشيرية» .

فىَّ [١] اختلاف الأحوال ، فقال : نعم ؛ قد وصل لعمرى [٢] ولكن إلى سقر» .

فقول الدقاق : هو مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم – هو الذى أنكره أبو على الروذبارى ، فكيف بقوله : مستحب ؟ وستتكلم إن شاء الله على هذا .

ثم إنه ذكر بعد هذا [٣] أنه سمع الأستاذ أبا على الدقَّاق رحمه الله يقول : «السماع طبع إلا عن شرع ، وخرق إلا عن حق ، وفتنة إلا عن عبرة» . وهذا الكلام يوافق قول الروذبارى ويخالف قوله : إنه مباح للزهاد لحصول مجاهداتهم ، مستحب لأصحابنا لحياة قلوبهم . فإنه جعل كل سماع ليس بمشروع فهو عن الطبع ، ومعلوم أن سماع المكاء والتصدية ليس مشروعا [٤] ، فيكون مسموعا بالطبع مطلقا .

وقال [٥] : «سمعت أبا حاتم السجستانى يقول : سمعت أبا نصر الصوفى [يقول :] [٦] سمعت الوجيهى [يقول :] [٦] سمعت أبا على الروذبارى يقول : كان الحارث بن أسد المحاسبى يقول : ثلاث إذا وجدن نمتع بهن ، وقد فقدناهن [٧] : حسن الوجه مع الصيانة ، / وحسن الصوت مع الديانة ، وحسن الإخاء مع الوفاء» . ظ ٩٩

(١) القشيرية : لا تؤثر فى .

(٢) لعمرى : ساقطة من «القشيرية» .

(٣) فى «القشيرية» ٢/٦٤٥ .

(٤) فى الأصل : ليس مشروع ، وهو خطأ .

(٥) أى القشيرى بعد كلامه السابق مباشرة فى «القشيرية» ٢/٦٤٤ .

(٦) يقول : زيادة فى «القشيرية» .

(٧) القشيرية : مُتِّع بهن وقد فقدناها .